رحلة ابن فضلان

د. خالد زيادة (*)

1 ـ رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، أصبحت معروفة ومدروسة في الأجزاء التي كشفت منها حتى الآن. ونجد تفصيلاً لمراحل اكتشاف مخطوط الرسالة في التقديم الذي أعده الدكتور سامي الدهان عام 1959 عند طباعة الرحلة في نسخة عربية[1]. وقد رجع د. دهان إلى الدراسات السابقة وجلها روسية والمانية، نظراً لاهتمام الاستشراق الروسي بهذه الرسالة التي تقدم المعلومات الأولى عن الروس والقبائل المحيطة بالفولغا وبلاد البلغار.

أبرز المهتمين بهذه الرسالة هو المستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي، صاحب «تاريخ الأدب الجغرافي العربي»، ويذكر ما يلي: «يحتل ابن فضلان المكانة الأولى بينهم (الذين زاروا الأصقاع الشمالية) سواء من الناحية الزمنية أو الأهمية الذاتية وذلك بسبب رسالته المشهورة التي تجدد الاهتمام بها في الأعوام الأخيرة (الأربعينات) بنفس الدرجة التي تمتعت بها لأول مرة منذ مائة وعشرين عاماً. وهذا الأثر، بلا شك، جدير بهذا الاهتمام»[2]. ويضيف كراتشكوفسكي: «يقدم لنا ابن فضلان صورة حية للظروف السياسية في العالم الإسلامي، والعلاقات بين بلاد الاسلام والبلاد المتاخمة لها في آسيا الوسطى أو الأصقاع النائية التي كانت تمثل أطراف العالم المتمدن آنذاك مثل حوض الفولغا. وتحفل الرسالة بمادة اتنوغرافية قيمة جداً ومتنوعة بصورة فريدة، وهي تمس عدداً من القبائل التركية البدوية القاطنة آسيا الوسطى وعدداً من الشعوب التي كانت تلعب آنذاك دوراً أساسياً في تاريخ أوروبا الشرقية كالبلغار والروس والخزر»[3].

إن ظروف ودوافع رحلة ابن فضلان وكذلك مسار وملابسات الرحلة، يمكن معرفته بجلاء من خلال نص الرسالة. والأمور الغامضة حول الشخصيات وأسماء المدن والأنهار والمواقع كشف الباحثون والمحققون أغلبها. ويمكن تلخيص ظروف الرحلة

(*) الجامعة اللبنانية ـ الفرع السادس.

ومسارها من خلال متن الرسالة، ومن خلال التلخيصات التي أعدها كراتشكوفسكي والدهان وسواهما[4]، على النحو التالي: بناءً على سفارة من ملك الصقالبة (بلغار الفولغا) تطلب العون من الخلافة في بغداد ضد ضغط يهود الخزر، وللتفقه في الدين والتعرّف إلى شعائر الاسلام الذي اعتنقوه قبل مدة قصيرة، أرسل الخليفة المقتدر سفارة تحت رئاسة سوسن الرسي، تحمل هدايا ومالاً، وتضم أحمد بن فضلان للإشراف على الفقهاء والمعلمين. وقد انطلقت السفارة من بغداد في 11 صفر عام 309هـ/21 حزيران 921، ووصلت إلى بلاد البلغار في 18 محرم 310هـ/12 مايو- أيار 922. أي أن رحلة الذهاب قد استغرقت أحد عشر شهراً. مرت الرحلة خلالها في همدان والري ونيسابور ومرو وبخارى، ثم قطعت نهر جيحون إلى خوارزم عند بحر آرال، وعبرت صحراء أوست أورت ونهر يايق وصولاً إلى حوض الفولغا.

وتبعاً لتقسيم الرسالة، فإن ابن فضلان يتحدث على التوالي عن شعوب العجم والترك والصقالبة والروس والخزر.

وبسبب عدم اكتشاف الجزء الأخير من الرسالة/الرحلة، فإن خط العودة غير معروف وكذلك المدة التي استغرقتها برمتها ذهاباً ووصولاً وإياباً.

تنسب نصوص الرحلات عادة إلى الأدب الجغرافي. وقد أفادت الجغرافيا البشرية العربية، وكذلك الجغرافية الاقليمية بشكل كبير من أعمال الرحالات واعتمدت على ملاحظاتهم ومعلوماتهم. إلاّ أن نصوص الرحلات، التي أعدّها جغرافيون آثروا أن يجروا اختباراتهم بأنفسهم، لا يمكن نسبتها بالكامل إلى أدب الجغرافيا. وعادة تحتوي هذه النصوص على مادة ذات طابع شخصي وذاتي لا يتلاءم تماماً مع غاية الجغرافيا وأهدافها. كما أن الانطباعات حول الشعوب وعاداتها وثقافاتها، نقلها الجغرافيون دون تحليل أو تمحيص لنقص في أدوات الدراسة. إلاّ أن تطور الدراسات الألسنية من جهة والدراسات الاجتماعية والانتروبولوجية [الإناسية] من جهة أخرى يمكنه أن يعيد النظر بهذه المادة الغزيرة التي يمكن استجداؤها للإسهام في تنمية وجهات نظر مبتكرة حول دراسة النصوص أو دراسة الشعوب.

ومن الضروري أن نلفت الانتباه هنا إلى عمل اندريه ميكيل حول الأدب الجغرافي الاسلامي، والذي أعاد قراءة النصوص الجغرافية، بما في ذلك نصوص الرحالات، ليستكشف عالم الأدب العربي والثقافة العربية من جديد. يقول ميكيل: «لماذا لا أسبر غور هذه المصنفات في أعماقها؟ ولماذا أعزف عن محاولة استخلاص الواقع التاريخي الموضوعي وانتزاعه منها، وأتناول نصوصها بتمامها، فأعتبرها لا شواهد على واقع معين، بل على تمثيل هذا الواقع، مستهدفاً، بما قل ودلّ من الكلام، لا إبراز عالم يبدعه استقصاء يتم بعد مضي ألف عام، بل إحياء عالم يحتمل أن تكون ضمائر البشر آنذاك قد أحسّت به، وأدركته وتخيّلته؟». ويريد ميكيل من ذلك إبراز: «ما تنفرد به الثقافة العربية الاسلامية في القرون الوسطى من أشكال أساسية، ويعبر عن هذه الثقافة بكلمة واحدة، هي لفظ الأدب»[5].

إذا كان كراتشكوفسكي قد قام بعمل أحاط من خلاله بتاريخ الأدب الجغرافي، وإذا كان أندريه ميكيل، قد وضع هذا الأدب في نصابه من الثقافة الإسلامية العربية. فإن الفرصة متاحة أيضاً أمام الاناسيين والمؤرخين لقراءة هذه النصوص على ضوء منهجيات جديدة. إن الاختصاصات المتفرقة يمكنها أن تجد موادها هنا وهناك. لكن خارج هذه الاختصاصات والتفرعات، من الضروري أن نملك أيضاً القدرة على إدراك انتماء هذه النصوص إلى ثقافة موحدة.

أليس من الضروري قبل هذا وذاك، وقبل أن

نقطّع النص الواحد فيأخذ كل علم حصته منه، أن نعيد إليه وحدته كخطاب متصل لا انقطاع فيه؟

2 ـ ليست لدينا معرفة بشخص ابن فضلان صاحب الرسالة، فالمراجع لا تذكر عنه شيئاً. ولمثل هذه المعرفة لو حصلت فائدة جزئية ودقيقة. ومن طبيعة دوره في السفارة نعلم أنّه المكلف بالإشراف على الفقهاء والمعلمين. فهو أقرب إلى أن يكون فقيهاً. وبالفعل فإن ابن فضلان يؤكد لنا هذا الأمر، أي معرفته بشؤون الفقه، من خلال اجاباته الحاسمة في بعض مواقع النص. فها هو في بلاد الصقالبة يجيب عن قضايا ذات طابع فقهي ضيق: «فلما اجتمعنا قال للترجمان: قل له ـ يعنيني ـ ما يقول في مؤذنين أفرد أحدهما (في الأذان) وثنى الآخر ثم صلى كل واحدٍ منهما بقوم، اتجوز الصلاة أم لا؟ قلت: الصلاة جائزة. فقال: باختلاف أم بإجماع؟ قلت: بإجماع»[6] تلك طريقة الفقهاء في اصطناع السؤال والجواب. إلّا أن ابن فضلان لا يجيب كيف تكون الصلاة والصيام في بلاد يكاد يضمحل فيها الليل: «ونحن ننتظر أذان العتمة، فإذا بالأذان، فخرجنا من القبة وقد طلع الفجر، فقلت للمؤذن «أي شيء أذنت؟ قال: آذان الفجر. قلت: فالعشاء الأخره؟ قال نصليها مع المغرب. قلت: فالليل؟ قال: كما ترى»[7] الخ. هنا يتخلى ابن فضلان عن دور الفقيه ليترك للصقلبي أن يجتهد في تحديد أوقات الصلاة.

من المحتمل أن يكون ابن فضلان فقيهاً، إلّا أنه من المحتمل أيضاً أن يكون من عداد الكتّاب، أو من أولئك المقربين من قصر الخليفة والعاملين في خدمته، وذلك أدين وأقرب إلى المهمة التي يقوم بها موفداً من سلطان إلى ملك. فقد كان الرسل والسفراء يأتون عادة من طبقة الكتّاب المحيطة بالقصر والسلطان أو الخليفة.

إن اهتمامات ابن فضلان بالرسوم على عادة الحجاب والكتّاب والوزراء واضحة. وفي نص رحلته إشارات واضحة إلى ذلك، يقول: «دخلنا إليه وهو في قبته، والملوك عن يمينه، وأمرنا أن نجلس عن يساره، وإذا أولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومي، فدعا بالمائدة فقدمت وعليها اللحم المشوي وحده، فابتدأ هو، فأخذ سكيناً وقطع لقمة وأكلها، وثانية وثالثة، ثم احتز قطعة دفعها إلى سوسن الرسول، فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجعلت بين يديه، وكذلك الرسم، لا يمد أحد يده إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة»[8]. وفي موقع آخر يقول: «وكلهم يلبسون القلانس، فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام، ولا أحد يكون معه، فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلّا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم إلى رؤوسهم وكذلك كل من يدخل إلى الملك من صغير وكبير حتى أولاده واخوته ساعة ينظرون إليه قد أخذوا قلانسهم فجعلوها تحت آباطهم»[9].

إن إشاراته إلى هذه الرسوم تفصح عن معرفته إذاً بأصول تقاليد الملوك والأمراء. وهي ملاحظات ضئيلة تفوق أهميتها الحيز الذي تحتله من الرسالة، لأنها تفسح لنا مجالاً للمقارنة مع تقاليد السلطة لدى الشعوب الأخرى التي يتحدث عنها. ومهما يكن من أمر الوظائف التي شغلها ابن فضلان قبل رحلته، فإن معرفته بحرفة الكتاب والوزراء مؤكدة[10].

ومن المؤكد أيضا أن ابن فضلان لم يكن جغرافياً، فهو لا يستعين بتلك المصطلحات التي يستخدمها الجغرافيون ولا يذكر أحدهم. كما أن بعض المسائل التي تثير اهتمام أهل الجغرافيا لا تثير اهتمامه. والأهم من ذلك فإنه لا يستعير منهم تقسيمهم العالم إلى أقاليم ونسبتهم كل بلد وأرض إلى إقليم.

ورثت الجغرافيا العربية الاسلامية، عن اليونانيين، تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم. وقد وضع

هـذا التقسيم عـلى أسـاس الـطول النسبي للنهـار والليل، أو ميل الشمس عن خط الاستواء، وبالـرغم من أن عروض الأقاليم متفاوتة، إلاّ أن هذه النظريـة كـانت من القـوة بحيث سيـطرت عـلى أعـمال جميـع الجغـرافيـين، ونسبت الشعـوب إلى الأقـاليم، وإلى الخصائص الثابتة لها. وإذا كانت الأقاليم سبعة، فإن أوسطها هو الرابع، أشدها في الاعتدال؛ بينما تتدرج الأقـاليم شمـالاً نحـو الـبرودة وتتـدرج جنـوبـاً نحـو الحرارة. وكلما اتجهنا شمالاً ازدادت البرودة، وبـالتالي تنـاقص الاعتدال المـرادف للمدينـة واعتدال الـطبـاع والأمـزجة، وهكـذا الشأن بـالنسبة للجنـوب. كانت نظرية الأقـاليم هذه من الجمـود بحيث أعاقت تقـدم العلم والبحث. وجعلت للشعـوب طباعـاً ثابتـة تبعاً لمنـاخ أقـاليمهم. وقـد جعـل المسلم عـالمـه في وسط الإقليم الـرابع المعتـدل وجعل الشعـوب الأخـرى في الأقاليم غير المعتدلة.

إن ابن فضلان يلتزم بهذه الرؤية الجغرافية للعالم، كـما سنرى، دون أن يكـون جغـرافيـاً. ومـدخله إلى الشعـوب غير المسلمـة سيكون تبـدل المناخ والـطبـاع والأمزجة والعـادات. إن الفقه الاسـلامي كان يـرفد هذه النظريـة بطريقـة غير مبـاشرة حين وضـع الحدود الفاصلة بين أحكام دار الاسلام وأحكام دار الحرب.

والراجح أن ابن فضـلان لم يكن مؤرخاً، ولم يكن ملماً بأعمال المؤرخين أصلاً. إلاّ أنـه يعمد إلى منهجهم المـأخوذ أصلاً عن منهج أهـل الحـديث ورواتـه. إنـه يستخدمه. فهو يرجع حديثه إما إلى مشـاهدة مبـاشرة أو سـماع مـوثـوق أو روايـة، ويتنقـل بـين الـروايـة والمشاهدة وإسناد الخبر.

تدخل هذه المعطيـات جميعها في نص ابن فضـلان القصـير والمختصر. وإذا كـانت الـرحلة نـوعـاً من الأدب، ففي هذا الأدب تنعكس الثقافة الاسلاميـة ـ العـربية في مـرحلة تبلورها في مـطلع القـرن الـرابـع الهجري وهو الزمن الموافق لقيام ابن فضلان برحلته.

كانت هذه الثقـافة، هـذه الرؤيـة للذات وللآخـر حـاضرة في نص الرحلة، خصـوصـاً أنها مجـابهـة مـع الآخر المغاير والمختلف. إن مركـزية ثقـافية ستفصـح عن نفسها وهي تتحدث عن الآخـر، فتعيد صيـاغته وفقاً لمقدمات مسبقة وتبعاً لمقارنـة ضمنية بـين عادات التـرك والصقالبة والروس وبين عادات ألفهـا الرحّـالة ومارسها، بين رسوم يعرفها ورسوم يندهش بـرؤيتها. يمكن لـلانثروبـولوجيـا أن تجد مضـماراً واسعـاً لهـا في خـطاب ابن فضـلان عن الـترك والخـزر والصقالبـة والـروس. ليس فقط في المعلومـات والمعطيات التي يـوفـرهـا، ولكن أيضـاً في طـريقـة المعـالجـة وفهـم الشعوب.

يلتزم ابن فضلان الطريقة المتبعة في كتابة الرحلة، فـلا بد أن تفصـح عن هدفهـا ونقـطة وصـولهـا. إن الرحلة بمثابـة تقريـر، وخصوصـاً في الحالـة التي نحن بصـددها، فـلا بد من رفـع هذا التقـرير إلى من أمـر بقيام الرحلة/السفارة أصلاً. من هنـا فإن النص قـد يغفل بقدر ما يفصح. لكن وحدة النص، بما في ذلك عناصر الإغفال، متكـاملة تفسّر بعضها بعضـاً. ومن حيث الشكـل التزم ابن فضـلان بـالتقسيم التقليـدي للرحلة، وهي تقسم إلى ثـلاث مـراحـل؛ طـريق الذهاب ـ الـوصول والإقـامة ـ ثم العـودة. وغالبـاً ما تكون التفاصيل في القسمين الأولـين أطول من القسم الأخـير المفقـود في حـالـة نص ابن فضـلان. وليس بمستغرب أن يستغرق القسم المتعلق بطريق الذهاب، نصف ما لدينا من صفحات الرسالة تقريبـاً، إذ يحتل أربعـين صفحـة من نص يتعـدى التسعـين صفحـة بقليل[11].

إن النص قصـير، ومع ذلـك فإن التفـاصيـل التي يذكرها تشكل مـادة ضخمة. وفي الأصـل فإن النص لا يتجـاوز الأربعين صفحـة متوسـطة الحجم. إلاّ أن أسلوب ابن فضـلان مختصر، ويسـتخـدم الجمـل القصيرة والسريعة.

3 ـ تبدأ الرحلة بتحديد المهمة ثم الرحيل من بغداد باتجاه فارس وصولاً إلى بخارى، حيث يبدأ بسرد بعض التفاصيل، بعد أن اكتفى بذكر المدن والمواقع التي عبرها. وفي بخارى يهاجم الشتاء السفارة، فيرجع ابن فضلان وصحبه إلى خوارزم، فيدخل ابن فضلان إلى أميرها محمد بن عراق. وتكاد السفارة تتوقف نهائياً عند هذا الحد، الذي هو حد البرد والكفر. والرأي عند الأمير أن طلب السفارة من ملك الصقالبة ما هو إلاّ خدعة: «لا آذن لكم في ذلك ولا يحل إليّ تركككم تغررون بدمائكم.. فلا يمكن الوصول إلى بلاد الصقالبة التي يفصلكم عنها ألف قبيلة من الكفار»[12].

تقع خوارزم إذاً على الحدّ بين بلاد الاسلام وبلاد الكفر، والخطر المحدق ليس في الألف قبيلة الكافرة فقط، ولكن في هذا البرد الذي هو سبب من أسباب الكفر. يستغرق حديث ابن فضلان عن البرد والثلج فقرات طويلة خلال اقامته في الجرجانية من أعمال خوارزم، ويتردد حديث البرد بعد ذلك مرات. فقد جمد نهر جيحون حتى سارت عليه الخيل والبغال، وتبدلت طباع الناس وهمومها. وتصبح النار الدافئة أعز شيء عند الإنسان: «فإذا اتحف الرجل من أهله صاحبه وأراد بره قال له تعالَ إليّ حتى نتحدث فإن عندي ناراً طيبة»[13] حتى السؤال إلى الاستعطاء يكون: «بأن لا يقف السائل على الباب، بل يدخل إلى دار الواحد منهم فيقعد ساعة عند ناره يصطلي ثم يقول: «بكند» يعني الخبز، فإن أعطوه شيئاً أخذ وإلاّ خرج»[14].

تختصر الحياة هنا إلى النار والخبز في مناخ الثلج في الجرجانية التي سيتطاول مقام ابن فضلان فيها مدى خمسة أشهر. ولا حديث له سوى عن بردها، حتى تصبح اللحية قطعة واحدة من الثلج، وهي المدينة التي: «تخلو حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحداً ولا يستقبله انسان»[15].

إن الجرجانية باب زمهرير، وبالفعل فهي الباب الذي سينطلق منه ليتابع رحلته في مناطق ليست تحت سلطة الاسلام. ومن الجرجانية إلى رباط زمجان التي هي باب الترك؛ «وجاءنا الثلج حتى مشت الجمال إلى ركبها فيه، فأقمنا بهذا المنزل يومين، ثم أوغلنا في بلد الترك لا نلوي على شيء، ولا يلقانا أحد، في برية قفر، بغير جبل. فسرنا فيها عشرة أيام. ولقد لقينا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف. وأشرفنا على تلف الأنفس»[16]. إن ابن فضلان لا يعدم روح النكتة. فالتركي الذي يرافقه يسأل: «أي شيء يريد ربنا منّا؟ هوذا يقتلنا بالبرد، ولو علمنا ما يريد لرفعناه إليه. فقال ابن فضلان: يريد منكم أن تقولوا (لا إله إلاّ الله). فضحك وقال: لو علمنا لفعلنا»[17].

إن البرد يتناسب مع الكفر، ويزول بزواله. والحديث عن هذا المناخ الثلجي البارد ما هو إلاّ التمهيد للدخول في عالمٍ مغاير للانتقال من حدود الإسلام إلى حدود الكفر، وجميع القصص التي يرويها تتأسس على هذا المناخ الجليدي. وما الامعان في هذا الطقس إلاّ إمعانٌ في الهمجية والكفر.

يمكن القول هنا إن هذا الإسهاب في الحديث عن المناخ الطبيعي، الثلج والقفر، يشكل أساس الخطاب الذي يصوغه عن شعوب تجاوزت حد الإسلام. وهذا الحديث يخدم أغراضاً أخرى ثانوية، كتبرير بطء الرحلة، والصعوبات التي واجهتها، لكن ذلك كله ما هو إلاّ مدخل إلى عالم مجهول وموحش. وهو يستبق هذا المجهول بمعرفة أولية تجعل ما يعرفه عن هذه الشعوب أكثر مما يجهله.

لكن من شأن هذه المقدمات المفسرة وغير المتعاطفة مع هذه الشعوب أن تدع مجالاً للغرابة، حين تفصح عن ذاتها. أما عندما يتعاطف الكاتب مع هذه الشعوب، فإن عباراته لا تفصح عن ذاتها بطريقة سهلة للفهم.

4 ـ أول الشعوب التي يتوقف عندها ويتحدث عنها هم الأتراك، الغزيّة والبنجاك والباشغرد. ويسهب في حديثه عن الغزيّة. ونجد لديه تفاصيل عن: حكامهم، وأربابهم، ونسائهم، ورسوم زواجهم، وأمر اللواط عندهم، وتقاليد المرض، وتقاليد الموت، ونتفهم لحاهم الخ. وليس من السهل جمع هذه المعطيات في نظام واحد. إن المعطيات تبدو غزيرة ولكن ناقصة وغير كافية. وأسلوب ابن فضلان ليس فيه شيء من التطويل، بل على العكس من ذلك إذ يعمد إلى الجمل القصيرة المتلاحقة على النحو التالي: «أفضينا إلى قبيلة من الأتراك يعرفون بالغزية. وإذا هم بادية. لهم بيوت من شعر. يحلون ويرتحلون. ترى منهم الأبيات في كل مكان. ومثلها في كل مكان آخر. على عمل البادية وتنقلهم. وإذا هم في شقاء. وهم مع ذلك كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين. ولا يرجعون إلى عقل. ولا يعبدون شيئاً. بل يسمون كبراءهم أرباباً. . . وأمرهم شورى بينهم»[18].

إن الفائدة التي نجنيها من هذا العرض السريع ليست بالقليلة، ومع ذلك يتوجب تفسير مقال ابن فضلان، ومن خلال هذه الجمل المتلاحقة نتعرف إلى الترك، ونتعرف في ذات الوقت إلى وجهة نظر ابن فضلان بهم؛ ويمكن ترجمة هذا المقطع إلى صفات يريد أن يشدد عليها كاتبها: بادية ـ رحل ـ أشقياء ـ ضالون ـ لا عقل لهم ـ كفرة ـ الخ.

وإذا واصلنا وجهتنا في متابعة وجهة نظر ابن فضلان نجد أن الغزّ الذين يتحدث عنهم: كفرة ـ قذرون ـ فاحشون ـ جهلة في الدين ـ لوطة ـ مرتدون ـ سفلة ـ ينبذون مرضاهم ـ ينتفون لحاهم ـ يقطعون الطريق ـ قتلة.

والبنجاك سمر، محلقو اللحى، فقراء.

أما الباشغرد فشر الأتراك وأقذرهم، وأشدهم إقداماً على القتل، يحلقون لحاهم، ويأكلون القمل. والباشغرد أشد كفراً: يعبدون الإحليل، ومنهم من يعبد اثني عشر رباً، ومنهم يعبدون الحيات، وطائفة تعبد السمك، وطائفة تعبد الكراكي[19].

وإذا طرحنا وجهة نظر ابن فضلان جانباً، نستطيع أن نتابع مسائل محددة فيما يتعلق بالأتراك الغزية بشكل خاص.

أ ـ في مسألة السلطة: يقول ابن فضلان إن أمرهم شورى بينهم. ولا يقدم أمثلة على ممارسة هذه الشورى، ولكنها أقرب إلى الشورى العشائرية. ويتحدث عن ملوك ورؤساء مما يدل على انعدام سلطة ملك مركزي واحد. وحتى «ينال» الذي يلقاه ابن فضلان أولاً بأول كان قد أسلم وعاد عن إسلامه لاشتراط قومه عدم إسلامه إذا أراد ترؤسهم، وإذا كان ذلك دليل على ضعف صاحب السلطة، فإن وجهة نظر عامة الترك تؤكد لا مبالاة بالحكام. فحين أوقف أحد الأتراك القافلة التي فيها ابن فضلان، قالوا له نحن أصحاب كوذركين، أي الخليفة أو ولي العهد، فقال التركي: «من كوذركين؟ أنا أخرى على لحية كوذركين»[20].

ب ـ إن فقر الأتراك أمر لا ريب فيه، فالتركي أوقف القافلة ولم يكن يريد سوى الخبز. وكذلك فعل الملك نفسه، الذي لم يقبل بمرور القافلة قبل أن يتلقى الهدايا.

ج ـ يترك ابن فضلان انطباعاً حول كفر الأتراك وابتعادهم عن الدين، ومع ذلك فإن علاقتهم بالمسلمين كانت حسنةً. فهم يقولون لا إله إلاّ الله حين يمر بهم المسلم. وإذا ظُلم واحد منهم يرفع رأسه إلى السماء ويقول الله واحد. واستحسن بعضهم قراءة ابن فضلان للقرآن. كذلك فإن اجتياز المسلمين لأراضيهم لم يكن نادراً بل على العكس. ولا يقدر أحد من المسلمين أن يجتاز ببلدهم حتى يجعل له منهم صديقاً ينزل عليه. ويسلمون غنمهم للمسلمين كي يذبحوها. وبالمقابل فإن تدينهم كان ضعيفاً أو أنهم بغير دين.

ولا يمنع ذلك من تمثلهم لبعض عادات المسلمين، في الزواج الذي لا يتم بغير استيفاء الصداق. وفي قتلهم للزاني.

د ـ ان ابن فضلان حين يتحدث عن الأتراك، إنما يفعل من خلال مقارنة ضمنية مع المسلمين، فهو يقول: «لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك. وليس بينهم وبين الماء عمل خاصة في الشتاء»[21]. إن العبارة الأخيرة ليست من نوع العبارتين السابقتين فبينما تفترض العبارتان الابتدائيتان ضرورة الاغتسال والطهارة، توضح الأخيرة ان علاقة الأتراك بالماء تترك مجالاً للتساؤل، ويصبح الأمر أكثر وضوحاً في مناسبة أخرى حين يوضح ابن فضلان ما يلي: «ولا يقدر أحد من التجار ولا غيرهم أن يغتسل من جنابة بحضرتهم إلاّ ليلاً من حيث لا يرونه. وذلك انهم يغضبون ويقولون: هذا يريد أن يسحرنا لأنه قد تفرّس في الماء»[22]. ومن هنا يصبح الأمر الأولي هو مفهومهم الذي يكونونه عن الماء والذي يلزمهم بالابتعاد عنها، ويصبح تفسير ابن فضلان ثانوياً.

هـ ـ وتبقى بعض المسائل المتعلقة بالمرض والموت غير كافية لاقتصارها على إشارات تحتاج إلى تفاصيل من مصادر أخرى. كابعادهم المرضى أو رميهم في الصحراء إذا كانوا عبيداً. وقتلهم دواب الميت.. الخ. ومع ذلك يمكن مقارنة هذه الأنظمة بمثيلاتها لدى الشعوب الأخرى التي يتحدث عنها لاحقاً.

5 ـ يصل ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة وهم مقصد الرحلة وهدفها. وليظهر بشيء من الوضوح اختلاف الصقالبة عن الأتراك، فإزاء بداوة الأتراك وبدائية سلطتهم، يظهر نوعاً من التقاليد الراسخة لدى الصقالبة تنعكس خصوصاً في نظام ملكهم الذي اكتسب تقاليد راسخة إلى حدٍ ما. وعادات الملك أدهشت ابن فضلان لدقتها وتنظيمها. إن وصف ابن فضلان للصقالبة متقطع من حيث السياق ويمكننا أن نستخلص منه الاعتبارات التالية:

أ ـ من المفروض أن الصقالبة مسلمون، إلاّ أن ذلك لا يظهر في حديث ابن فضلان إلاّ قليلاً، وهو يُعلم الملك مبادىء بسيطة يجهلها جهلاً تاماً. ولا يبدو أن الصقالبة أنفسهم قد دخلوا في الاسلام ما عدا القلة، ويذكر ابن فضلان مثلاً: «رأينا فيهم أهل بيت (لعله عشيرة) يكونون خمسة آلاف نفس من إمرأة ورجل قد أسلموا كلهم، يعرفون بالبرنجار، وقد بنوا لهم مسجداً من خشب يصلون فيه، ولا يعرفون القراءة، فعلّمت جماعة ما يصلون به»[23]. ويذكر ابن فضلان أن صقلبياً قد أسلم على يديه، ولكنه لا يذكر لنا حوادث أخرى مماثلة. ويبدو الاسلام في بلاد الصقالبة غريباً في بيئة ليست بيئته، فهذا الليل القصير والنهار الطويل يبلبلان أوقات الصلاة فماذا عن الصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؟

ب ـ وتبدو السلطة قوية من خلال مظاهرها؛ نواب الملك الأربعة ـ قبة الملك التي تتسع لألف شخص ـ هيبته على المائدة ـ واحترام الناس له عند مروره ورفعهم قلانسهم الخ. ولم يكن الصقالبة فقراء ولم يكن ملكهم فقيراً على غرار ملك الترك. إن علاقة الصقالبة في الإسلام يفسرها ابن فضلان من خلال محادثة قصيرة ينهي بها حديثه عن الصقالبة يقول: «سألته يوماً فقلت له: «مملكتك واسعة، وأموالك جمة، وخراجُك كثير، فلم سألت السلطان أن يبني حصناً بمال من عنده لا مقدار له؟ فقال: رأيت دولة الإسلام مقبلة، وأموالهم يؤخذ من حلّها، فالتمست ذلك لهذه العلة. ولو أني أردت أن ابني حصناً من أموالي من فضة أو ذهب لما تعذر ذلك علي، وإنما تبركت بمال أمير المؤمنين، فسألته ذلك»[24].

ويمكننا أن نفهم من خلال ذلك أن مسألة اسلام

الصقالبة، لم تتعد التحالف الذي كان ينشده ملكهم مع الخليفة، لمواجهة أعدائه المحيطين به. وهذا ما يفسّر لنا مستقبل الاسلام بين الصقالبة، الذين لم يكونوا في وضع يسمح بالاندماج في تعاليم الاسلام.

ج ـ إن عادات الصقالبة تبقى عاداتهم التي يستغرب أمرها ابن فضلان والتي لا تمت بصلة إلى الاسلام. فيتبركون بعواء الكلاب جداً ـ وإذا ولد لابن الرجل مولود أخذه جده دون أبيه وقال: أنا أحق به من أبيه ـ ويقتلون من رأوا له حركة ومعرفة بالأشياء ويقولون: هذا حقه أن يخدم ربنا ـ وينزل الرجال والنساء إلى النهر ويغتسلون جميعاً عراة ـ ولم تفلح جهود ابن فضلان لمنعهم من ذلك: «وما زلت اجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك»[25].

ومع ذلك فقد أخذوا عن الاسلام أشياء، فهم يقتلون الزناة، وربما كانت عادتهم في ذلك سابقة لمعرفتهم بالإسلام: «ومن زنا منهم كائناً من كان ضربوا له أربع سكك وشدوا يديه ورجليه إليها وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخذيه»[26]. ويقتلون الرجل بالرجل قصاصاً.

د ـ وقد رأى ابن فضلان، حسب قوله، في بلاد الصقالبة، من العجائب ما لا أحصيها كثرة. ويروي قصصاً يختلط فيها الوهم بالخيال: «وسمعت في الجو أصواتاً شديدة وهمهمة عالية، فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني وإذا تلك الهمهمة والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والدواب وإذا في أيدي الأشباح التي فيه تشبه الناس رماح وسيوف أتبينها وأتخيلها»[27].

ويروي قصة أخرى لا تقل غرابة عن رجل «له رأس كأكبر من القدور، وأنف أكثر من شبر، وعينان عظيمتان، وأصابع تكون أكثر من شبر شبر، فراعني أمره وداخلني ما داخل القوم من الفزع»[28]. وينعطف من هذه القصة ليتحدث عن بلاد يأجوج ومأجوج «يخرج الله لهم في كل يوم سمكة من البحر، فيجيء الواحد منهم ومعه المدية فيحز منها قدر ما يكفيه ويكفي عياله، فإن أخذ فوق ما يقنعه اشتكى بطنه، وكذلك عياله يشتكون بطونهم، وربما مات وماتوا بأسرهم»[29] وأشجارهم غريبة وثمارهم كذلك. وربما يموت أكثرهم بالقولنج. فالغرابة تطبع حديث ابن فضلان عن الصقالبة.

6 ـ يدمج ابن فضلان في صورة الروس النشاط بالبدائية، وهي صورة مدهشة في دقتها: «ورأيت الروسية، وقد وافوا في تجاراتهم، ونزلوا على نهر إتل. فلم أر أتم أبداناً منهم كأنهم النخل، شقر حمر، ولا يلبسون القراطق ولا الخفاتي، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه، ويخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه جميع ما ذكرنا»[30].

وفي حديثه عن الروس نسترجع صورة الترك فهو يستخدم في أوصافهم ما كان استخدمه في أوصاف الترك.

أ ـ فهم قذرون، لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة. إلّا أن الروس لا يخافون الماء كما الترك. فلا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون واطفسه[31]. وهم مثل الترك أيضاً ينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه[32]. وهم مثل الصقالبة: إذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم وطرحوه فيها[33].

ب ـ لا يحدثنا ابن فضلان عن ملك الروس سوى القليل. إلّا أن ما يمكن استنتاجه هو قوة هذا الملك: «ومن رسم ملك الروس أن يكون معه في قصره أربعمئة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده»[34].

ج ـ إن الديانة التي يتحدث عنها ابن فضلان بخصوص الروس، أقرب ما تكون إلى المسيحية من حيث الشكل. وربما كان الروس تعرفوا إلى شيء من

طقوس المسيحية، فهم يتوسلون إلى صور وأخشاب.

د ـ يحدثنا ابن فضلان عن قصة حرق الجارية بعد موت سيدها، فيصف جميع مراسم الحرق وما يرافقه، ويستغرق حديثه عن هذه الحادثة التي يشاهدها ثلثي حديثه عن الروس، وهي تستحق قراءة مستقلة.

إن الصفحات القليلة (ثلاث صفحات) التي يفردها ابن فضلان للحديث عن الخزر يخصصها لوصف ملكهم، الذي يبدو قد احتل مكانة عظمى في شعبه والشعوب المجاورة. والدليل ان له خمساً وعشرين امرأة، كل واحدة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه. وقد كان ملك الخزر يهودياً، وقد أراد ملك الصقالبة أن يتحصن بالإسلام لمقارعته. وتصلح الصفحات القليلة هذه للتعرف إلى مكانة وتقاليد ملك الخزر.

7 ـ إن اجراء مقارنة بين الشعوب التي تحدث عنها ابن فضلان ليس لها مبررات إلّا من وجهة نظر صاحب الرسالة نفسه. لهذا نقترح هنا إجراء مثل هذه المقارنة من خلال خطوط عريضة تظهر في سياق نص الرسالة.

أشرنا في البداية إلى أن ابن فضلان يملك رأياً مسبقاً حول الشعوب التي تعيش في أقاليم الثلج والبرد؛ حيث المناخ البارد يتناسب مع التوحش والقذارة والفحش. يضع ابن فضلان هذه الشعوب خارج حدود الاسلام من جهة، وعلى حدود بلاد يأجوج ومأجوج التي هي أقصى الأرض ونهايتها من جهة أخرى. وكلما أوغلنا في هذه الأقاليم تباعد الاعتدال فالصقالبة يبعدون عن قوم ويسو (روسيا) مدة ثلاثة أشهر، حيث الليل أقل من ساعة. وبلاد ويسو تبعد عن بلاد يأجوج ومأجوج مسافة ثلاثة أشهر أيضاً، وأهل يأجوج ومأجوج يقيمون خلف السد وبينهم وبين قوم ويسو البحر، وهم عراة ينكح بعضهم بعضاً كالبهائم. إلّا أن المطمئن أن الله قد جعل بينهم وبين سائر الشعوب حواجز: فإذا أراد الله ـ عزّ وجل ـ أن يخرجهم إلى العمارات سبب لهم فتح السد، ونضب البحر، وانقطع عنهم السمك»[35]، باعتباره غذاءَهم الوحيد. إن ابن فضلان لا تنقصه المعلومات التي لا تخلو من الصحة، لكن جملة المعطيات تندرج في تعزيز رؤية اسلامية لتقسيم الشعوب والعالم. هذه الرؤية المسبقة، كما في قصة السد بالنسبة ليأجوج ومأجوج وخروجهم من عزلتهم، مستقاة من ثقافة اسلامية وتقيم تشابهاً ومقارنة بين الأقوام المختلفة. وابن فضلان يستخدم عبارات متشابهة أحياناً في وصف حالات متباعدة. مما يقلل من الفروق التي يمكن أن يبحث عنها القارىء لرحلته.

ينطلق ابن فضلان من نزعة مركزية ثقافية اسلامية في نظرته إلى أقوامه التي يصفها. إن الدين الاسلامي يقبل الآخر، وهذا أمر ذو أهمية خاصة بالنسبة لموضوعنا، والثقافة الاسلامية في القرن الرابع الهجري كانت فاحصة وناقدة وتستوعب التنوع والاختلاف، وهي متساهلة في التصنيف وصوغ التراتب، ومن هنا قدرة ابن فضلان على تفحصه وبحثه «العلمي» إلّا أن ثقافة شمولية يمكنها أيضاً التساهل في ملاحقة التفاصيل، وتميل إلى الإدماج وايجاد القواسم المشتركة.

ثمة مجال لمعالجات مختلفة بخصوص نص ابن فضلان:

يمكن لهذا النص أن يشكل ميداناً لتفحص النزعة المركزية الثقافية الاسلامية مما يستدعي قراءة نقدية معززة بمعرفة أسس النظرة الاسلامية الى الشعوب الأخرى[36]. ألم يشكل هؤلاء الجغرافيون والرحّالات العرب أنّاسة عصرهم، بحيث أسسوا لإمكانية النظر العلمي إلى الشعوب الأخرى؟

إن الجغرافيا المعاصرة قلما تلتفت إلى ماضيها، وإن فعلت فإنها لا تجد صورتها، ولا تتعرف إلى ذاتها في ثنايا هذه النصوص. أما التأريخ فيمكنه أن يجد مادة

لصنعته في كل معطى، وأنه لمن المغري أن نقرأ الأحداث التي يصفها ابن فضلان ويتحدث عنها من وجهة نظر تاريخ المستقبل، الحروب والصراعات والتحالفات وما آلت إليه مع التطور اللاحق. ومع ذلك فإن هذه المواد تبقى حائرة إذا لم يعثر المؤرخ عمّا يرفدها في مصادره ووثائقه.

يبقى لنا أن نطرح بعض الامكانيات التي تثيرها قراءة نص ابن فضلان.

يهتم صاحب النص بشؤون الملك لدى الشعوب التي يزورها. وبالإمكان استعراض النقاط التالية: يبدو لنا ملك الأتراك بدائياً وضعيفاً. يصف ابن فضلان الحكم لدى الأتراك بأنه شورى، وهي شورى هزيلة لأن أضعف وأخسّ الأفراد بينهم يمكنه أن يخالفها. و«ينال» الملك الذي يتحدث عنه يسلم ثم يرتد أمام ضغط جماعته، وليست للملك هيبة، فأدنى الأتراك يتهكم عليه. تلك صورة ابن فضلان عن ملك الترك. تتناسب هذه الصورة مع فقر الحكم والعامة على السواء، وتتناسب مع تشتت الأتراك في عشائر بدوية بدائية مرتحلة غير مستقرة. وبالتناسب مع ذلك أيضاً نجد أن الأتراك ليست لهم عادات مستقرة وخصوصاً لجهة ديانتهم، ونفهم أن لا دين لهم. ومع ذلك فإن الأتراك أقرب هذه الشعوب إلى ديار المسلمين، وهم يعرفون شيئاً عن ديانة الاسلام ولدى مرور ابن فضلان بقبائلهم الغزية والبنجاك والباشغرد، كانت بضع عادات اسلامية قد أصبحت مألوفة لديهم، كقولهم لا إله إلاّ الله، أو الله واحد. ثم إن العلاقات بين الترك والتجار المسلمين قد نمت.

على العكس من ذلك نجد أن الصقالبة كانت لديهم هيئة حاكمة ممثلة بملك ونوابه المتعددين. ويملك عاهلهم هيبة ومالاً وسلطةً وقوة. وكانت لدى هؤلاء الصقالبة تقاليد ملك وأنظمة حياة. وقد دهش ابن فضلان لهذا النظام، عادات المائدة أو رفع القلانس. وكانت لدى الصقالبة أنظمة صارمة في الزواج والولادة والموت والمرض. وصاحب النص يتعاطف سلبياً مع الصقالبة المسلمين، إلاّ أنه إسلام مشوب وغامض، ولعله لم يتجاوز الهيئة الحاكمة كثيراً، من هنا التحفظ الذي يتوجب الاحتياط به، فابن فضلان لا يصف الصقالبة بالقذارة والتوحش مثلما يفعل مع الترك والروس.

ويبدو بالمقابل ملك الروس قوياً ومسلحاً مع شيء من التوحش. والنشاط والغلظة والتوحش أمور تميز الروس وملكهم. أما سرّ قوة الخزر وملكهم فتبقى غامضة في نص ابن فضلان.

يمكن لنا أن نقرأ هذه المعطيات من جديد وعلى نحو مختلف: إن ضعف الأتراك وفقرهم وركاكة أنظمة الملك لديهم جعلهم على أهبة الدخول في الإسلام كخيار وحيد ممكن. وكان الاسلام قادراً على استيعاب فقرهم وطيشهم، على عكس الصقالبة الذين كانوا على شيء من التنور دفعهم إلى التحالف مع الإسلام، لأن الإسلام إن لم يكن خيارهم الوحيد، فإن أنظمتهم الراسخة منعتهم من قبول مبادىء الاسلام. وملاحظة ابن فضلان عميقة في مغزاها حين يعلن اخفاقه عن ثنيهم عن عاداتهم.

أما الروس فكانوا مثل الأتراك في التوحش، وعلى أهبة الدخول في المسيحية.

كانت هذه الشعوب محاصرة بالأديان، الاسلام والمسيحية واليهودية أيضاً. كما حاصرت أوروبا «العقلانية، الصناعة، الحضارة» شعوب العالم في القرن التاسع عشر ولا تزال. كانت أنظمة الملك والمجتمع لدى هذه الشعوب تقاوم تعاليم الأديان الصارمة من جهة وتنصاع لها تدريجياً من جهة أخرى. فتؤلف تنوعاً وتصوغ أشكالاً مختلفة من الأنظمة؛ كان على المركزية الأوروبية أن تواجهها بالتحليل من جديد.

الحواشي

(1) أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد: رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة. حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور سامي الدهان. الطبعة الأولى أصدرها مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1959. ونعود هنا إلى الطبعة الثانية الصادرة عن مديرية إحياء التراث العربي. ضمن سلسلة المختار من التراث العربي. رقم 3.

(2) اغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي. (2,1) نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم. منشورات جامعة الدول العربية. 1961. انظر القسم الأول، ص 186.

(3) نفسه ذات الصفحة.

(4) انظر على سبيل المثال ملخص للرحلة في نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب. الأهلية للنشر والتوزيع ـ بيروت 1980 الصفحات 141-145.

(5) انظر:

André Miquel: La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11e siècle. Mouton et Co. Paris-La Haye 1967.

ترجمة عربية تحت عنوان: جغرافية دار الاسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر. اعداد إبراهيم خوري. دمشق 1983. الجزء الأول/القسم الأول. ص 7.

(6) رسالة ابن فضلان: ص 150.

(7) نفسه، ص ص: 153-154.

(8) نفسه، ص ص: 145-146.

(9) نفسه، ص: 159.

(10) حول حرفة الكتاب، انظر: الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب. طبعات مختلفة. انظر أيضاً: المختار من رسائل أبي اسحق ابراهيم الصابي. تنقيح شكيب أرسلان. دار النهضة الحديثة. بيروت. ب. ت.

(11) تبعاً للنص المحقق الذي نعود إليه.

(12) رسالة ابن فضلان، ص: 111.

(13) نفسه، ص: 114.

(14) نفسه، ص: 115.

(15) نفسه، ص: 116.

(16) نفسه، ص: 120.

(17) نفسه، ص: 121.

(18) نفسه، ص: 122.

(19) نفسه، الصفحات 138, 139, 140.

(20) نفسه، ص: 129.

(21) نفسه، ص: 123.

(22) نفسه، ص: 125.

(23) نفسه، ص: 163.

(24) نفسه، ص: 172.

(25) نفسه، ص: 162.

(26) نفسه، ص: 162.

(27) نفسه، ص: 152.

(28) نفسه، ص: 165.
(29) نفسه، ص: 165.
(30) نفسه، ص: 175.
(31) نفسه، ص: 178.
(32) نفسه، ص: 177.
(33) نفسه، ص: 180.
(34) نفسه، ص: 187.
(35) نفسه، ص: 166.
(36) انظر محاولتنا: تطور النظرة الاسلامية إلى أوروبا. معهد الانماء العربي، بيروت 1983.